توطئة

تأمَّلْ غلافَ الكتاب تَرَ يداً تحمل شيئاً هو في طور النمو. إنها نبتةٌ صغيرةٌ الآن، غير أن جذورها ستضرب عميقاً وأغصانها ستشتدُّ وتنتشر لتضفي قوةً أو ظلالاً أو جمالاً على جوارها. وسواء عليها أَنَمَتْ في حديقةٍ أم في بستانٍ أم في غابة، فإنها ستنمو وتزكو على كل حال، فذاك هو شأنها ودأبها المنتظَر منها. ومع نموِّها وزكُوِّها ستغيِّر وجهَ الحياة من حولها.

هذا الكتاب يبحث في إمكان تغيير عالَمنا. إنه لا يحكي قصة ثورة، مع أنه حريٌّ بإحداث تغييرٍ ثوريٍّ في حياتنا، وإنما يتناول خدمةَ الآخرين والنظرَ إليهم كأفرادٍ يمكنهم العطاءُ قدر استطاعتهم؛ ولا غرو، فلو نظرنا إلى أيدينا لأدركنا من فورنا أنها تحتوي على ما يحتاج إليه الآخرون.

يبدأ الكتاب بطرح بعض الافتراضات، وعلى رأسها أن الناس يرغبون فعلاً في مساعدة بعضهم بعضاً، وصولاً إلى تحسين حال العالَم، غير أنهم في الأعمّ الأغلب لا يعرفون كيف يفعلون ذلك. ويفترضُ الكتابُ كذلك أن الناس يبحثونَ عن معنىً وقيمةٍ في حياتهم فلا يعرفون كيف يهتدون إليهما؛ فهم طالما حاولوا جمع المال، أو الإمعان في طلبِ الملذّات، أو ممارسة السلطة، إلا أن محاولاتهم كلَّها تركتهم في حالةٍ من الفراغ، حتى إن أحدهم ليتساءل: ما غاية وجودي

ها هنا؟ إننا في حقيقة الأمر نبحث عن شيءٍ ولا نعرف الوجهةَ التي علينا أن نولِّيَها.

يبيِّن هذا الكتاب أن الإجابة عن الأسئلة المهمة في الحياة بسيطةٌ، لكنها ليست سهلةً. إنه يقدِّم شيئاً غير معهودٍ في بابه يتمثَّل في أن المُعِيْنَ الحقيقيَّ للقوة في حياتنا لتغيير العالم يكون متاحاً عندما نسعى في خدمة الآخرين. وقد عاينتُ ذلك بنفسي من خلال آثار مؤسسة «من القلب إلى القلب الدولية» Heart to Heart International- وكالة الإغاثة الإنسانية التي أسَّسها غاري مورش.

وقد تقاطع مساراتنا عدةَ مرات في سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته، ولكنني لم أحظَ بالخوضِ في أول حديثٍ طويلٍ وعميق مع غاري إلا في سنة 1991؛ فقد كان حينئذٍ في نيويورك لحضور اجتماعٍ لمجلس إدارة نادي لام Lamb's Club، وهو مركز رعاية اجتماعيةٍ وفنّية، يقع غيرَ بعيدٍ عن ميدان تايمز. واتفق أن كنتُ في نيويورك أيضاً أعمل في مشروعٍ لمصلحة مجلة «نيويورك تايمز»، فاستأجرتُ لي شقةً في نادي لام، على مسافة بناءٍ أو اثنين من مبنى تايمز.

وفي ليلةٍ أزمع بعضُ أعضاء مجلس إدارة النادي الذهابَ إلى مسرح برودواي Broadway لحضور مسرحية «عِنَبات الغضب»، فدعوني إلى مرافقتهم، إذ طالما كانت تهزُّني قصةُ عائلة جود التي تتوالى عليها المحن في طريقها من ولاية أوكلاهوما إلى ولاية كاليفورنيا عبر منطقة دَسْت بول Dust Bowl القاحلة التي ما انفكَّت

تذروها العواصف الغبارية، إلى أن استولى عليهم اليأس. وقد تأثرتُ بنوعٍ خاصٍ بالمشاهد الأخيرة من المسرحية عندما بدا الجميعُ وكأنهم قد خرجوا صفر اليدين، لكنهم ما لبثوا أن وجدوا سبيلاً لتقديم معونةٍ إلى شخصٍ كان أشدَّ منهم بؤساً ويأساً.

عندما انتهى العرض توجَّه معظمُ أفراد مجموعتنا إلى قطارات الأنفاق عائدين، غير أننا ـ غاري وأنا ـ تماشينا إلى النادي، وفي الطريق رحنا نتبادل الأفكار فيما يتَّصل بمشروعاتنا المستقبلية. قلتُ لغاري: إنني أحبُّ أن أكتب في أمورٍ ذات قيمة، فقال: إنه يودّ لو يجد سبيلاً إلى مساعدة المعذَّبين في الأرض، وإنه يعتقد أن ثمة وسيلةً للاستفادة من فائض الموارد وتوزيعها على المحتاجين إليها. ولم نتنبَّه إلا وقد قضينا ساعاتٍ نطوف شوارع نيويورك حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل.

قال لي: «أعتقد أن الناس يرغبون رغبةً عميقةً وصادقةً في مساعدة الآخرين، لكنهم لا يعرفون السبيل إلى ذلك. ألا تُعدّ مقابلةُ رغبات هؤلاء الناس بحاجات العالَم عملاً ذا بال؟».

شعرتُ أن الفكرة أكبر من أستطيع الإحاطة بها، لكنني أذكر أنني قلت: «إذا استطعتَ تقدير ذلك، فأنا مستعد للكتابة بهذا الصدد».

ومنذ ذلك الحين أطلق غاري المؤسسةَ الإنسانية «من القلب إلى القلب الدولية»، وانضمَّ إليها آلافٌ من المتطوّعين التوّاقين إلى البحث عن أناسيَّ هم بحاجةٍ ماسّةٍ إلى العون. واستحقَّت هذه المنظمةُ احترامَ الحكومات وسائر المؤسسات في طول العالَم وعرضه. ومع أنها تعمل

Original Title:
The Power of Serving Others
You Can Start Where You Are

بنفقاتٍ لا تتجاوز نسبتها 2 بالمئة (في حين تناهز نفقاتُ غيرها من المؤسسات 40 بل 50 بالمئة)، فهي من أكثر مؤسسات العالم نشاطاً.

وواقع الأمر أن المتطوِّعين يؤلِّفون عماد هذه المؤسسة ـ إنهم أفرادٌ متحمِّسون لخدمة الغير. ومما لاحظتُه شخصياً فيهم يقظتهم وانفتاحهم على تلبية حاجات مجتمعاتهم وجوارهم، بل وبيوتهم نفسها، بحيث غدت خدمةُ الآخرين جزءاً من أسلوب حياتهم. إنهم يدركون أن القدرة متاحة لتغيير نظرتهم إلى العالم، وإلى الآخرين، وإلى أنفسهم بالذات.

ولعلَّ من أكبر التحوُّلات التي لاحظتُها أنه ما إن يشرع المرء في خدمة الآخرين حتى يدرك سهولة الأمر، بقطع النظر عن طبيعة ظروفه وحجم موارده، فلا يلزمه الانتقال إلى بقاعٍ من العالم كي يقدِّم الخدمة، بل يستطيع أن يؤديها إلى مَنْ يليه من المحتاجين إليها.

تلك هي النتيجة التي آمل أن تخلص إليها عندما تقرأ كتابنا هذا الذي يعبِّر عن فلسفتنا الشخصية المشتركة. على أن معظم التجارب والخبرات المبثوثة فيه تخصّ غاري بالتحديد؛ فالكتاب من تأليف اثنين وتحرير شخصٍ واحد، تماماً كموسيقيَّيْن يغنِّيان بنغمة واحدة مطَّردة.

انظر من جديد إلى صورة الغلاف، وسترى وأنت تقرأ الكتاب كيف تستطيع تلك النبتةُ أن تنمو وتنتعش مع تنامي إحساسك بهدفك الذي تروم.

دين نِلْسون

تنويه

هذا الكتاب تجسيد للرسالة التي يحملها، وهي أن خدمة الآخرين تبدأ من مواقعنا أولاً وبالذات، وأن الأقربين هم أولى بالمعروف. وقد نميَ إلى سمع ميندي ماكينا من مدينة كانزاس حديثُنا عن خدمة الآخرين، فأسدت إلينا خدمةً أوصلتنا إلى كين بلانكارد الذي قدَّمَنا بدوره إلى مارثا لورنس، وهي محرِّرةٌ متميِّزة لم تألُنا تشجيعاً ونُصحاً بأن لنا رسالةً لا بدَّ من أن تُسمع. ثم عرَّفتنا مارثا بـ ستيف بييرسانتي من دار بيريت ـ كوهلر للطباعة والنشر، الذي ما توانى في دفعنا إلى إغناء رسالتنا أكثر فأكثر وتحسين مضمونها. فإذا كانت رسالتنا واضحةً فعلاً فالفضلُ جلُّه يعود إلى العناية الكبيرة التي أولاها ستيف لها، وإذا كانت خلاف ذلك فالتقصير منَّا نحن ليس غير. فالشكر لـ ميندي، وكين، ومارثا، وستيف.

أما زوجتانا فكانتا متفهِّمَتيْن تماماً لمعنى خدمة الآخرين، ومن ثمَّ فقد تعلَّمنا منهما كيف نخدم من وجوهٍ عديدة. إن كتاباً كهذا يحتاج إلى زمنٍ طويل لجمع معلوماته وتصنيفها، وقد تحقَّق لنا ذلك على حساب أوقاتنا الشخصية الخاصة معاً. فلكما منّا ـ فيكي ومارسيا ـ جزيل الشكر والامتنان لإدراككما قيمة هذا المشروع، ولتوفير الوقت اللازم لإخراجه إلى النور.

غاري مورش ودين نِلْسون

المقدمة

اطرحِ المسألةَ

لا يجوز بحال أن تكون الغايةُ القصوى من البحث انطلاقةً للنفس أو سعادةً لها، بل هي الحكمةُ والقدرة على خدمة الآخرين.

جوزيف كامبل[1]

في سياق قصةٍ رمزيةٍ قصيرةٍ للروائي الروسي ليو تولستوي* بعنوان: «علامَ يعيش الإنسان» يلتقي صانعُ أحذيةٍ فقيرٌ رجلاً عارياً يرتعد من البرد في ليلةٍ شتويةٍ روسيةٍ قارسة. ثم يتبيَّن أن الرجل العاري مَلَكٌ كان قد فَسَقَ عن أمر ربه له باستلال روح امرأةٍ وافاها الأجل، لكن مهمته تلك كانت تستتبع ترك ولديها يتيمَيْن؛ فلم يشأ المَلَكُ تنفيذ المهمة. ماتت المرأة على كل حال، وطُرِد المَلَك من السماء حتى يجد جواباتٍ عن مسائل ثلاثٍ على الأرض: ماذا مُنِحَ الإنسان؟ وعَمَّ مُنِعَ ؟ وعلامَ يحيا؟

وبفضل ما وجده الملاكُ من صانع الأحذية الطيِّب وزوجه من عطف استنبط جواباً عن المسألة الأولى: ماذا مُنِحَ الإنسان؟ مُنِحَ الحبُّ للناس أجمعين، واستقرَّ في قلوبهم.

---

* (1828–1910) المترجم.

ومما وجده الملاكُ من رجلٍ ثريٍّ مدَّعٍ كان قد أمرَ بحذاءٍ من جلدٍ فاخر، غير أنه قضى في اليوم نفسه قبل أن يُمتَّع بانتعاله، استلهم الإجابة عن المسألة الثانية: ماذا زُوِيَ عن الإنسان؟ زُويت عن الناس معرفةُ حاجاتِهم ومستلزماتِهم.

أما المسألة الثالثة فهي أكثر المسائل إثارةً للاهتمام لأنها تلامس جوهرَ أفعالنا كلِّها؛ إنها القضية المحورية لكل إنسان: علامَ يحيا الناس؟

ما الذي يضفي على حياتنا معنى؟ ما الذي يجعلنا نحيا حياةً جديرةً بالعيش، خلافاً لتلك التي عاشها الرجلُ الثريُّ في قصة تولستوي، الذي قضى نحبه دون معرفة؟ ويكتشف الملاكُ الجواب فيقول قبيل أن يستعيد جناحيه: «لقد أيقنتُ أن الإنسان لا يمكن أن يعيش على رعاية نفسه والاهتمام بذاته، بل بحبِّه للآخرين. وعندما هبطتُ إلى الأرض كإنسان لم أعشْ على رعاية نفسي، بل على الحب الذي لقيتُه في قلب عابر سبيلٍ وزوجه، وبسبب عطفهم وشفقتهم عليَّ». وقال الملاكُ معقِّباً على الولدين اللذين خلَّفَتْهما المرأةُ المحتَضَرة التي لم تطاوعه نفسُه انتزاعَ روحها:

«إن حياة اليتيمَيْن لم تكن لتستمرّ لولا ما وجداه من حبٍّ في قلب شخصٍ غريب.... وهكذا تستمر حياة الناس جميعاً، لا بفضل رعايتهم لأنفسهم، بل بحبِّ الآخرين لهم، وبحبِّهم للآخرين»[2].

في قصة تولستوي هذه يتجلَّى الحبُّ بطريقة خدمة الناس بعضهم لبعض. ومن ثمَّ فإن حبَّنا للآخرين هو السرُّ الذي نحيا عليه.

لقد وَقَرَ في قلبي هذا المبدأ وأيقنْتُ بصوابه على الصعيد الشخصي، ووجدتُ، بعد أن قضيتُ شطراً من حياتي مشرِّقاً ومغرِّباً في هذا العالم، أن محبَّة الآخرين صفةٌ عامةٌ تستغرق الناسَ جميعاً مهما كانت أديانهم ومعتقداتهم، بل تستغرق كذلك مَنْ لا ينتمون إلى دينٍ بعينه؛ مصداق ذلك ما لمسناه من إقبالٍ على المساعدة في أعقاب كارثة المدِّ البحري الزلزالي (التسونامي) المدمِّر الذي ضربَ سريلانكا وإندونيسيا، وإعصارَيْ كاترينا وريتا في الولايات المتحدة الأمريكية.

إنني أعاين بنفسي ـ بصفتي طبيباً وعضواً في هيئة للإغاثة تعمل في أقسى الظروف التي يمكن تصوُّرها ـ كيف يُقْبِل الناسُ على مدّ يد العون إلى مَنْ هم بحاجةٍ إليها، بقطع النظر عن اختلاف أعراقهم وأديانهم وتباينُ طبقاتهم الاجتماعية؛ لا يجمعهم سوى أن أحدهم حلَّت به نازلةٌ، وأن الآخر قادرٌ على تفريج كربه.

واستناداً إلى تجربتي هذه خرجتُ بالنتائج التالية:

1- إن لدى كلِّ فردٍ شيئاً يقدِّمه، لا يُستثنى من ذلك أحد.

2- معظم الناس مستعدُّون لتقديم العون وراغبون فيه إذا اقتضى الحال وسنحت الفرصة.

3- بإمكان كل فردٍ أن يفعل شيئاً لمصلحة أخيه على الفور ومن غير إبطاء.

يُذكر أن نفراً من الباحثين الجامعيّين المتخصِّصين في دراسة الدماغ البشري اكتشفوا أن خدمة الآخرين جزءٌ لا ينفصم من بصمتنا الجينية، شأنها شأن حب الذات. وقد تأكَّد لي ذلك شخصياً بحكم

عملي الطبِّي. ترى كريستين مونرو (أستاذة علم النفس السياسي في جامعة كاليفورنيا ـ إيرفين) أن الناس بطبعهم يتصرَّفون بفيرية، أي بروحٍ من الإيثار وحب الخير للآخرين، ولاسيما عندما ينظرون إلى الصفة الإنسانية المشتركة فيما بينهم. وبدا ذلك جليّاً بالفعل في أعقاب كثيرٍ من الأعاصير والحروب والجوائح والأوبئة. إننا إذا نظرنا إلى الآخرين على أنهم من بني البشر تجسَّدت في نفوسنا حاجاتهم، فانفعلنا واستجبنا.

تقول الأستاذة مونرو: «إن السمة الغالبة في علم الاجتماع، وعلم الحياة التطوُّري، وعلم النفس وغيرها من ميادين العلم هي الافتراض بأن الإنسان يَنْزع إلى الأثرة وتقديم المصلحة الشخصية. غير أن ذلك غير صحيح تفنِّده روحُ الإيثار عند البشر»[3].

ودلَّل الباحثان سي. دانيال باتسون ونانسي آيزنبرغ (من جامعة ولاية أريزونا) أن لدى الإنسان نزعةً إلى السلوك الغيريّ المتَّسم بالإيثار[4]. وترى ليندا ويلسون المتخصِّصة في علم الاجتماع أن روح الإيثار ربما تكون سبيلاً للنجاة والبقاء على قيد الحياة؛ فقد دَرَسَتْ ما يزيد على مئةٍ من الكوارث الطبيعية، ووجدت أن الضحايا الذين مدّ أحدهم يد العون لإنقاذ صاحبه في المحنة قد أنقذَ بعضُهم بعضاً ونجوا جميعاً. كذلك كان الضحايا المتعاونون بمنأى عن عددٍ من المشكلات النفسية التي ربما كانوا ـ لولا تعاونهم ـ عرضةً لها[5].

ويذكر هَوارد كتلر في كتابه «فن السعادة» The Art of Happiness الذي ألَّفه بالاشتراك مع الدالاي لاما: «يرجح أن النَّزعة إلى التلاحم مع الآخرين في سُبُل الخير نزعةٌ متأصِّلة في الطبيعة الإنسانية منذ

الأزل؛ فقد وُجِد أن الأفراد الذين اجتمعوا في المِحَن كانوا أوفر حظّاً في النجاة». ويؤكِّد كتلر ـ الذي يمتهن الطب ـ أن الدراسات قد أثبتت أن أولئك الذين يستحوذ عليهم حرصُهم على مصالحهم الذاتية هم أكثر الناس قابليةً للإصابة بآفاتٍ قلبية، وإن صلحت نوازعهم السلوكية الأخرى[6]. وقد تبيَّن لي ذلك شخصياً من خلال عملي الطبي.

أما صموئيل أولينر (وهو عالم اجتماع يعمل في جامعة هومبولت) فقد وَقَفَ حياته لدراسة الأسباب التي تحمل الناسَ على ارتكاب أعمال العنف أو التوجُّه إلى فعل الخير. يقول أولينر: «إن من العسير، في غياب الحب والتعاطف والرعاية، أن تتصوَّر أن بإمكان العالم أن يتقارب أو يتَّحد. ولعلَّ في روح الإيثار ترياقاً ناجعاً لعالَمٍ منقسم»[7].

بل إن القيام على خدمة الآخرين بات ضرورةً اجتماعية؛ إذ يذكر المؤرخ دانيال بورستين أن طلائع المستوطنين الأمريكيين ألَّفوا جماعاتٍ ليحقِّقوا مجتمعين ما لم يتمكَّنوا من تحقيقه فرادى، بدافع البقاء والاستمرار. وفي ميثاق ماي فلاور Mayflower Compact قطعَ المهاجرون على أنفسهم عهداً «بأن يعمل الجميع للمصلحة العامة المتبادلة أخذاً وعطاءً»[8]. حتى إن خدمة الآخرين أمرٌ مدوَّنٌ في تاريخ أمَّتنا؛ فقد صرَّح آل غور، بعد أكثر من مئتي عام، عندما كان نائباً للرئيس الأمريكي آنذاك في مؤتمرٍ يتناول مستقبل أمريكا: «إن النَّزعة التطوُّعية volunteerism مفيدةٌ للفرد، كما أنها تعود بالنفع على

البلاد». ويقول الطبيب النفسي ألفْرِد آدلر إن من الممكن علاج الكآبة عندك في غضون أربعة عشر يوماً «إذا أنت حاولتَ التفكير يومياً بطريقةٍ لإسعاد شخصٍ ما»[9].

وفي حين أن ثمة دليلاً علمياً على أننا بالفطرة نزَّاعون إلى الإيثار، فإننا مع ذلك مخيَّرون. وتكمن روعةُ الاختيار في أننا عندما نُؤْثِر خدمةَ الناس، نعمل على تحقيق شيءٍ رائع.

وعندما أصبحتُ طبيباً قرَّرتُ قضاءَ جزءٍ من كلِّ سنة مع الناس الذين لا يطيقون تحمُّل نفقات الرعاية الطبية المناسبة. وجاءت رغبتي هذه أسوةً بوالدي، الذي كان يستقبل في منْزلنا أعداداً من الناس ممَّن تعوَّدوا الإسرافَ في الشراب، فيقدِّم إليهم ما يأكلون، ويستأثر الفقراءَ منهم دوماً بمزيدٍ من طعامٍ أو مال.

وكنت قد عقدتُ العزمَ وأنا طالب في كلية الطب على تخصيص شطرٍ من كل عام لممارسة مهنة الطب حيث لا تتوفر الرعايةُ الصحيّة الكافية. وبالفعل كنتُ في كل عام أُتْخِم عدداً من الحقائب بعيِّنات مجانيةٍ من الأدوية، وأتوجَّه بها إلى بعض بلدان العالم الثالث، فزرتُ تشيرنوبيل، والصين، والهند، وغيرها، وقضيتُ فيها بضعة أسابيع وحدي.

لقد انغرست في نفسي بذرةُ خدمة الناس عن طريق مراقبة والدي الذي ربما أخذها من والديه، ونَمَتْ معي بعد ذلك وأنا ما زلتُ طالباً في كلية الطب، بما يشبه كثيراً النبتةَ الصغيرة التي تراها على غلاف هذا الكتاب.

بدأت البذرةُ تُنتج شجرةَ سنديان بعدما ألقيتُ بعضَ الملاحظات ارتجالاً في نادي الروتاري* منذ بضع سنوات. فقد لاقت ملاحظاتي صدىً كبيراً عند جمهور الحاضرين لم أكن أتوقَّعه. ونجمَ عن هذا الأمر تحوُّلي جزئياً عن ممارسة الطب إلى إنشاء مؤسَّسةٍ إنسانيةٍ عالمية.

وأذكر أن ملاحظاتي لأعضاء نادي الروتاري جاءت بعد عدة أسابيع أنفقتُها في مخيّم للاّجئين الكامبوديين، أعالج من الناس مَنْ سمحَ به الوقت والموارد المتاحة. وبينما كنتُ جالساً مرةً مع رجال أعمالٍ محلِّيِّين، أعلن المضيفُ عن اعتذار المتحدِّث المقرَّر لذلك اليوم عن الحضور في اللحظة الأخيرة، وتابع قائلاً: «لعلَّ الدكتور مورش يخبرنا طرفاً من أعماله في كامبوديا».

لم يكن في ذهني - وأنا متوجِّه صوبَ المذياع - أي فكرةٍ عما يمكنني قوله، لكن من عادتي ألا أفوِّت فرصةً تعرض لي دون أن أعلن على الملأ عن مسألةٍ تعني لي الشيء الكثير. وفي ذلك اليوم رحتُ أخبر الجمعَ عن اللاجئين وأحوالهم المؤسفة، وأن علينا أن نفكِّر فيهم كآدميين لا كأرقامٍ إحصائية أو أخبارٍ إعلامية. ثم إني طرحتُ تحدّياً لم أكن أنوي طرحه، فأنا لستُ في معرض الوعظ، لكنني كنتُ أحلم بصوتٍ مرتفع.

قلتُ: «لماذا لا نبحث ـ نحن الذين نعيش في دعةٍ سُلبت من نحو 98 بالمئة من سكان العالم ـ عن جماعةٍ أو مكانٍ أو مشروعٍ نلتزم به لتخفيف آلام المعذَّبين؟».

---

* نادي الروتاري Rotary Club منظمةٌ دوليةٌ لأصحاب الأعمال أنشئت في شيكاغو سنة 1905. (المترجم).

وعدتُ إلى مكاني.

وسرعان ما وصلتني استجابةٌ آنيَّةٌ وحاسمة تقول: «ما عليك إلا أن تحدِّد موعداً للحضور وماذا عليَّ أن أجلب معي».

وهكذا، لم تكد تمرُّ أسابيع قليلة إلا وقد وقع اختيارنا على بناءٍ في بيليز يعود إلى جمعية الشبَّان المسيحيين، كان قد دمَّره إعصارٌ وبقي غير صالحٍ للاستثمار منذئذ، علماً بأنه كان في سابق عهده مركزاً اجتماعياً ومنشأةً تعليميةً ومستوصفاً صحيّاً عاماً. من أجل ذلك انبرى فرعُ نادي الروتاري المحليُّ يجمع التبرعات، وطارت مجموعةٌ منّا إلى بيليز فأصلحت المبنى، ليعود مكاناً للخدمة الاجتماعية من جديد.

وكم كانت عظيمةً سعادةُ الناس هناك وشكرانهم للمعروف؛ فقد أعلمني بعضُ أصحاب الأعمالِ والشركاتِ الناجحة الذين شاركوا في تلك الرحلة من الرجال والنساء أن تجربتهم تلك كانت أهمَّ منجزات حياتهم على الإطلاق، وأنهم باتوا يشعرون أن حياتهم قد غدت ذات معنى وهم يسهمون في إغاثة ملهوف. لقد قدَّموا مساعدةً ماديّة فأورثهم ذلك شعوراً غامراً بالحياة. لم يقولوا إنه أورثهم شعوراً بالسعادة فقط، فما أكثر الأشياء التي تجلب السعادة، بل إنه الشعور بالحياة نفسها.

وذكَّرني ذلك على الفور بمشهدٍ من فيلم «مدينة الفرح» City of Joy، الذي أدّى فيه باتريك سويز دورَ جرّاحٍ حاذقٍ رغبَ ـ مختاراً ـ عن المال والشهرة في مركزٍ طبّيٍّ مرموقٍ بهيوستن لينتقل إلى العمل طبيباً في كلكتّا، عندما أعلن أنه «لم يشعر قطُّ أنه مفعمٌ بالحياة شعورَه بذلك الآن». ولعمري ذلك هو جوهر البحث الإنساني.

يقول الفيلسوف جوزيف كامبل: «يزعم الناس أن غاية ما ننشده ونسعى في طلبه هو أن نجد معنىً للحياة. والحقيقة أن ذلك ليس هدفنا المنشود. إن ما نتحرَّاه حقّاً هو الإحساس بأننا أحياء بصورةٍ تتردَّد فيها أصداءُ تجاربنا الحياتية على الصعيد المادي المحض في أعماق كياننا وواقعنا، فنستشعر بالفعل سرَّ النشوةِ التي يعنيها كوننا أحياء»[10].

وبعد سنةٍ من رحلتنا إلى بيليز غادرت مجموعةٌ منّا إلى روسيا وهي تحمل مَدَداً طبِّياً إلى مستشفىً يعاني من نقصٍ في مستلزماته الأساسية كالإبر الجراحية والضمادات ومضادات الالتهاب والقفازات المعقَّمة. وكان بإمكاننا إرسالها وحسب لولا أننا أدركنا أن أخذها باليد أجدى وأنفع، وقد تأكّد لنا ذلك من الأطباء والممرِّضين والمرضى هناك. إن الاهتمام بمَلْء الرفوف من جديد بما ينقصها من الأدوية والضمادات أمرٌ محمود لا شك في ذلك، وأهمُّ منه احتفالنا بالقيام بالزيارة شخصياً؛ فقد اتَّضح أن هذه الخدمة الشخصية وجهاً لوجه قد أظهرت الفرق في نفوسهم ونفوسنا كذلك، فشعرنا بالفعل أننا قد تصادقنا مدى الحياة مع قومٍ كنّا نعدُّهم في يومٍ «أعداء».

هذا وقد دفعني تكرارُ القيام برحلاتٍ كهذه إلى إنشاء مؤسسة «من القلب إلى القلب الدولية» Heart to Heart International سنة 1992، وهي منظمة تهدف إلى البحث عمَّن هم بحاجةٍ إلى العون، مستعينةً في المقام الأول بالمتطوِّعين من أهل الخير. والاستجابة العامة واحدةٌ دوماً: وهي أن الناس راغبون في البذل، لكنهم غالباً لا يعرفون السبيل إلى ذلك، مع إدراكهم ـ إذا أتيحت لهم الفرصة ـ بأن ما يفعلون من خير هو ما يضفي على الحياة معناها الحقيقي، وهو ما نحيا عليه.

فشركات صنع الأدوية التي تمتلك فائضاً من منتجاتٍ معيَّنة تستطيع التبرُّع بها لنا عندما نقيم جسراً جوّياً طبِّياً إلى مناطق حاقت بها كوارثُ طبيعيةٌ واقتصادية. ويشار إلى أن شركات النقل تُدخِل جسورَنا الجوّية هذه في اعتبارها دوماً، إضافةً إلى أن وزارة الخارجية الأمريكية وضعت طائراتها الضخمةَ تحت تصرُّفنا لاستعمالها في نجدة المحتاجين إلى العون أينما وجدوا في أنحاء العالم. وكثيراً ما تتَّصلُ بنا محطّاتُ التلفزة طالبةً الإذن لها بنشر فعاليات المؤسسة إلى الخارج. ويتقاطر المتطوِّعون توّاقين إلى الخدمة، طيِّبة بها نفوسهم. وبسببٍ من كثرة المتطوّعين في المؤسسة فإن نفقاتها لا تتجاوز 2 بالمئة ليس غير.

لم يَدُرْ في خَلَدي يوماً إنشاء مؤسسةٍ إنسانية، بل كنتُ أحدِّث نفسي حديثَ تلك الشخصية التي مرَّت بنا في قصة تولستوي: علامَ نحيا؟ وبأي الأعمال نحن خليقون؟ وخَلَصتُ إلى ما خَلَصَتْ إليه: أننا نحيا على محبة الآخرين، فأردتُ أن أمنح الآخرين الفرصةَ ليفعلوا ذلك.

وكان من ديدن والدي أن يقدِّم إلى الناس خدماتٍ صغيرة، وعلَّمني أن الخدمة لا تقتصر على الأعمال العظيمة؛ فإنني لم أرَه مثلاً ينقذ شخصاً من مبنىً يحترق، لكنني طالما رأيته يقدّم إلى الناس الطعام والمال والوقت، ويعرض عليهم أن يوصلهم إلى مقاصدهم، حتى غدت خدمةُ الناس صفةً ملازمةً لحياته، ثم أصبحت صفةً لحياتي. فمَنْ ذا الذي كان يتنبّأ بأن يتطوَّر أسلوبُ حياة والدي إلى مؤسسةٍ دوليةٍ تَمنح الناسَ فرصةً للعيش كما كان يعيش، وعلى نطاقٍ دولي؟

وإذ إنني ما برحتُ أزاول مهنتي في الطب، فأنا أوفِّق بين عملي هذا وعملي في مؤسسة «من القلب إلى القلب»، بأن أخصِّصَ بضعةَ أيامٍ من كل شهرٍ للعمل في مراكز الطوارئ الطبيّة في المدن الصغيرة، وأنفق سائر وقتي في توفير المواد الطبية وجمع المتطوّعين لسدّ حاجة المحتاجين حول العالم. وقد أتيح لي بحكم طبيعة عملي هذا أن ألتقي نفراً من الناس حلُّوا بقاعاً من الأرض هي موارد تهلكةٍ حقيقية يحرص معظمُ الناس ألا يقربوها، فعانَوا من المشاقِّ ما عانوا، ومع ذلك فقد رأيتُهم يقدِّمون خدماتهم إلى الناس في ظروفٍ غايةٍ في الصعوبة، وعايَنْتُ أثرَ تلك الخدمات فيمن يقدِّمها وفيمن قُدِّمَتْ إليه كليهما.

في سياق الفصول الأخيرة من رواية دوستويفسكي «الإخوة كارامازوف»، وبعد أن يُدان أحدُ الإخوة بقتل أبيه، يمسي أخوه محموماً، في حين يُقْدِم الثالث على الانتحار. وهكذا ترى أن مظاهر الفساد والخيانة والعنف تتوالى وتتصاعد مع كل صفحةٍ تقرؤها، إلى أن يظهر لك أليوشا، أصغرُ الإخوة، وهو يتحدّث إلى مجموعةٍ من الصِّبية الحزانى لوفاة رفيقهم في المدرسة. وفي الوقت الذي يبدو فيه أن ليس ثمة نهاية للمعاناة الإنسانية، وأنهم جميعاً محكومٌ عليهم بحياةٍ من الشقاء واليأس، يبرز أليوشا ليذكِّر الصِّبيةَ بأنهم قد أحسنوا إذ تعاطفوا مع زميلهم الذي قضى، وبأن يستشعروا ما يورثه ذلك في نفوسهم من أثر، فيقول لهم: «نعم، لقد عشتُ لحظةً كنتُ فيها طيِّباً ومحسِناً وشجاعاً».

ويتابع: «لا داعي إلى الخوف من الحياة، فالحياة جميلةٌ بقدر ما تفعل فيها من خيرٍ وتقيم من عدل»[11].

ويقول الفيلسوف هاتسن سميث، وهو من أوضح المفكِّرين رأياً وأنفذهم بصيرةً ممَّن قرأتُ: إن أعظم قوةٍ لنا في حياتنا على الإطلاق «هي قدرتنا على تحديد ما نريد فعله وما نريد أن نقف حياتنا له»[12].

يتعرض هذا المفكِّر [في كتابه Why Religion Matters] إلى تداعيات اعتداءات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) 2001 الإرهابية على مدينتي نيويورك وواشنطن، ثم الاستجابة الرفيقة الرحيمة لها في كوسوفو؛ وإلى الثورة الهادئة التي تعتمل في صدر كل ثائرٍ من منظمة النمر الأسود*، وإلى عددٍ من الأحداث الأخرى التي تبدي طبيعةَ الخير والعدل التي تسكن كلَّ فردٍ منّا. إنها أحداثٌ تنطبق على تجاربي الشخصية ومشاهداتي التي تشهد على تجربة الملاك في قصة تولستوي، ومؤدّاها أننا نعيش على الحب وعلى خدمة الآخرين.

ومن شأن أحداث هذا الكتاب أن تشير إلى دروسٍ وعِبَرٍ عميقة، وتدعو الأفرادَ - أنّى وُجدوا ومهما كانت أعمارهم ومشاربهم وخبراتهم ومستويات معيشتهم - إلى تلمُّس المعنى الحقيقي في حياتهم. وهي تبيِّن بوضوح أن القيام على خدمة الآخرين أيسرُ تحقيقاً ممّا قد يُظَنّ. وإنك لترى حيالك أمثلةً ناطقةً عن شتلاتٍ صغيرةٍ غضَّة كيف تتحوّل أحياناً لتصبح شجراتٍ عظيمةً باسقة.

* Black Panther: منظمة أمريكية تناضل في سبيل حقوق الزنوج. (المترجم)

وأرجو أن يدرك الناس أن هذا العالَم ـ سواء بدا لهم كبيراً أم صغيراً، مثيراً أم مملاً ـ بحاجةٍ إلى إسهام كلٍّ منّا فيه عن طريق خدمة الآخرين الساعةَ بما يتوفر بين أيدينا وبقدر ما نطيق. ولا يُنتَظَر من خدمتنا أن نغيِّر وجه العالَم، بل إن عالَم كلٍّ منّا سيتغيَّر حتماً حالما نكتشف ما اكتشفه ملاكُ تولستوي. إننا نعيش بحبِّ الآخرين، ونجسِّد حبَّنا لهم عن طريق خدمتهم.

وليكن الجميع على يقينٍ من أن بالإمكان الحياة على هذه الطريقة. وقد تحقَّق الكاتبُ ميتش آلبوم من ذلك بنفسه عندما بدأ يتردَّد إلى أستاذة المحتَضَر موري، مدوِّناً تجاربه في كتابه الرائع Tuesdays with Morrie. يقول إنه كان منهمكاً يوماً ـ باعتباره معلِّقاً رياضياً ـ في التعليق على دورة ويمبلدون لكرة المضرب، يحيط به جمعٌ من الإعلاميين والرياضيين عندما خطَرَ على بالهِ أمرٌ كان موري قد أعلمه به:

«كثيرٌ من الناس يعيشون حياةً لا معنى لها؛ يبدون وكأن النعاس قد غشيهم حتى وهم منشغلون في أعمالٍ يعتقدون أنها مهمة؛ ذلك لأنهم يسعون وراء مقاصد خاطئة وهم يظنّون أنهم يحسنون صنعاً. إن الطريق إلى إدخال معنىً إلى حياتك يكمن في أن تقف نفسك لمحبة الآخرين ولخير مجتمعك من حولك، ولإحداث أثرٍ يضفي على حياتك هدفاً ومعنىً».

نعم، تذكَّر آلبوم هذا في غمرة العمل وزحمة الناس من حوله في ويمبلدون، وقال: «لعمري إنه لصادق، مع أني لم أحرِّك ساكناً في هذا الصدد»[13].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا يكون هذا المفهوم صعبَ الإدراك؟ ولماذا يقرُّ بعضُ الناس، من أمثال ميتش آلبوم، بصوابه في الوقت الذي لا يفعلون فيه شيئاً حياله؟ ولماذا لا نُقْبِلُ تلقائياً على السير في نهج خدمة الآخرين في حياتنا؟ ما هي معوِّقات العيش على مستوى يمكننا بلوغه بسهولةٍ ويسر؟

لعلَّ العقبةَ الأساسية تتمثل في الخوف من المجهول، فنحن لا ندري إلى أين نقود أنفسنا؛ فقد تكون الأمورُ أكثرَ اختلاطاً وتعقيداً مما تبدو عليه بادي الرأي. إننا نخشى أن تقودنا خدمةُ الآخرين إلى نقطة نفتقر فيها إلى الطاقة الانفعالية اللازمة للاستمرار.

ولربما كان التردُّد في ركوب موجة الخدمة نابعاً من شخصية منكفئة انطوائية؛ فبعضُ الناس طبعُهم الحياء والتحفُّظ، ويجدون حرجاً شديداً في التواصل مع الآخرين، بل نوعاً من التطفُّل عليهم. صحيحٌ أن الأم تريزا كانت حَيِيَّة، إلا أنها تميَّزت بشخصيةٍ منبسطةٍ فعّالة!

كذلك يحجم بعض الناس عن خدمةِ غيرهم لاعتقادهم بضيق وقتهم وقلَّة ذات يدهم، أو لمجرَّد أنهم يجهلون ما يحتاج إليه الآخرون أو ماذا عساهم أن يفعلوا لمساعدتهم ـ أي أن يكون السببُ نقصاً في المعلومات. بل لربما كان السببُ غياب الفرصة المؤاتية لأداء الخدمة.

من ناحيةٍ أخرى قد توجد ثمة محاذير ملحوظةٌ تحول دون أداء الخدمة؛ فقد كان الخطرُ من انغماس ميتش آلبوم في حياة موري أنه كان يدرك أنه ربما اصطدم بفراغ حياته واقتصارها على الاهتمام بمصالحه الشخصية.

ومن الناس من يتردَّد في خدمة الآخرين لفسادٍ في دوافعهم الذاتية ـ أي لارتيابهم في جني مكاسب معيَّنةٍ لأنفسهم بدلاً من أداء الخدمة بمحض رغبةٍ في المساعدة.

وفي اعتقادي إن دوافعنا هي دوماً دوافع مختلطة.

يشار إلى أن روبرت كولز، وهو أستاذ في جامعة هارفارد، أطْلع دوروثي داي، العاملة في حركة العمال الكاثوليكيين، على ما ينتابه من هواجس تتَّصل بدوافعه الشخصية إلى خدمة الآخرين. تقول داي: «لو كان لنا في أن نمنع المرائين والمنافقين من العمل معنا هنا، فلن نجد ثمة من يقوم بالعمل، أو بالجزء غير المستساغ منه!»[14].

غير أن ثمة سبباً واحداً آخر على الأقل، فيما أرى، لامتناع بعض الناس عن خدمة الآخرين، وأرجو أن يسهم هذا الكتاب في تغييره، وهو أن الناس يجهلون مدى سهولة الأمر لا أكثر ولا أقلّ.

وعلى مدى سنواتٍ من عملي طبيباً، قمتُ بزيارة الآلاف من غرف المشافي والتمريض، ولم أرَ في مرةٍ واحدة أن غرفة مريضٍ قد زيِّنت بميداليةٍ أو لوحة تذكارية له أو عَقدٍ أو كشف بحسابٍ مصرفي يعود إليه؛ كما لم أرَ قطُّ في أيٍّ من تلك الغرف صورةً لبيت المريض أو لمكتبه. بل إن ما كنتُ أراه في كل غرفةٍ تقريباً بطاقاتٍ مرسَلة من المحبِّين، ورسومات من صنع الأطفال، وعبارات المحبة والأماني بالشفاء.

إذن لا يلزمنا الانتظار إلى أن ندخل المستشفى لكي نكتشف ما هو مهمٌّ لنا؛ بل إن في وسعنا أن نبدأ الساعةَ بالعناية بمن هم حولنا، وببثّ الأمل في نفوسهم.

هذا الكتاب لا يشتمل على خطواتٍ سبع أو عاداتٍ سبع؛ إنه ليس غذاءً للروح أو إكسيراً للحياة، غير أنه يحمل في ثناياه دروساً قد تحفزنا على إدراك ما نعيش عليه. لا غرو في أن تتفاوت إجاباتنا الفردية، إلا أن السؤال يبقى واحداً لا يتغيَّر.

علامَ نعيش؟ لا شك في أنك ستستنبط في الصفحات التالية عدداً من الأجوبة لنفسك. وسيتبيَّن لك أنك تستطيع أن تبدأ بشيءٍ صغيرٍ هو في مَلْكِك الآن وعليك ألا تحقره. وآمُلُ أن يكون في هذا الكتاب ما يوجِّه ويُلْهم ويبعث على خدمة الآخرين، فذلك ما سيفضي بنا إلى أمرٍ ما برحنا نبحث عنه دوماً.